"وقائع التعليم وتحدّياته في لبنان"، في أبرشيّة أنطلياس المارونيّة، في 28 أيّار (مايو) 2022 ، حول التربية والتعليم، في كنيسة مار مارون البوشريّة.

البروفسور سليم دكّاش اليسوعيّ

الحديث عن التربية والتعليم هو الحديث عن ركيزة من ركائز وجود لبنان الحديث ونشأته كدولة، لأنّ هذه التربية كانت الرافعة الأساسيّة التي هيّأت العقول والقرار السياسيّ لإعلان نشأة هذه الدولة في العام 1920. لولا التربية التي هيّأت البُنى الفكريّة والملموسة لنشأة لبنان، لما استطاع هذا الأخير أن يتّخذ شكل الدولة.

التعليم هو السبب الذي يحثّنا على الدفاع عنه لأنّه، بالإضافة إلى كونه الحزام الذي يدافع عن وجود لبنان، هو يشكّل أصل ثروة لبنان الأساسيّة المتمثّلة في الموارد الكفوءة اللبنانيّة في لبنان والعالم، والتي تلقّت تنشئتها في مدارس لبنان وجامعاته. بالأمس كان السبب واليوم، لا يزال السبب. في هذه المساهمة حول وقائع التعليم في لبنان وتحدّياته، وخاصّة على المستوى الكاثوليكيّ، سنبدأ بصياغة بعض المعطيات التاريخيّة حول نشأة المدرسة الابتدائيّة والتعليم الثانويّ والجامعيّ العامّ والخاصّ. ثمّ سنتحدّث عن تطوّر معطيات التعليم وتأثيره على التعليم الكاثوليكيّ. أخيرًا، ستتمّ مناقشة تحدّيات المدرسة الكاثوليكيّة والتعليم العامّ والخاصّ بشكل عامّ. أفضّل استخدام مصطلح "حرّ" للإشارة إلى التعليم الخاصّ.

1) بعض المعطيات التاريخيّة :

أ) كان الهدف من **إنشاء المدرسة المارونيّة في روما في العام 1584** وحتّى العام 1812 إعداد كهنة وكوادر علمانيّة وفق تقليد الإصلاح التريدينتينيّ المناهض. تمّت تنشئة مائتَي وثمانين طالبًا من قِبَل المدرسة ومنها العديد من البطاركة (إسطفان الدويهي، وجرجس أميرة) والعديد من أساقفة الكنيسة، وهم قدامى تركوا بصماتهم وتأثيرهم في الكنيسة. مستشرقون أمثال ابراهيم الحاقلاني، وغبريال صهيوني، ويوسف السمعانيّ،... الذين تركوا أثرًا كبيرًا في تطوّر الاستشراق العربيّ والسريانيّ في أوروبا.
في لبنان، لعب خرّيجو المدرسة دورًا في إدخال الطباعة في العام 1610 إلى قزحيا في الشمال من قِبَل سركيس الرزّي وجرجس أميرة. وُجِدَت الطباعة في المدرسة من أجل تعلّمها. وكذلك الأمر أولئك الذين عادوا إلى بلادهم لعبوا دورًا مضاعفًا في التعليم مذ أصبحوا معلّمين ومربّين في بيئتهم الاجتماعيّة والكنسيّة. ونتيجة لذلك، كانت المدارس الوطنيّة الشهيرة في جبل لبنان من إنجاز تلاميذ قدامى تخرّجوا من المدرسة المارونيّة في روما : وهكذا، على سبيل المثال، تأسّست مدرسة القدّيس يوسف في زغرتا في العام 1690 على يد جرجس بن عبيد، ومدرسة مار الياس في عينطورة التي أسّسها بطرس مبارك في العام 1728، وخاصّةً مدرسة دير مار أنطونيوس في عين ورقة، التي أسّسها البطريرك يوسف إسطفان (من غوسطا) في العام 1789. العديد من المؤسّسات شكّلت الأرض الخصبة الحقيقيّة لروّاد النهضة العربيّة، النهضة الثقافيّة العربيّة والوطنيّة في نهاية القرن التاسع عشر.

ب) 1736 السينودس المارونيّ البلديّ في اللويزه

التاريخ الثاني هو تاريخ السينودس المارونيّ في العام 1736 الذي اتّخذ قرارات في مجال تعليم الشباب والبنات، بجعل التعليم إلزاميًّا، وباقتراح برنامج دراسيّ مستوحى من مدرسة روما وبفرض مجّانيّة التعليم ؛ كما وجّه السينودس نداءً إلى قدامى مدرسة روما للعودة إلى البلاد والمشاركة في العمل التربويّ للكنيسة.
في الواقع، كانت الفكرة تكمن في تزويد المؤمنين في الكنيسة، وخاصّة الشباب منهم، بأدوات تساهم في تنشئة شخصيّاتهم المسيحيّة في مواجهة غيرهم من المسيحيين غير الكاثوليك والمسلمين، وتشكيل الانتماء إلى الكنيسة المارونيّة والوطن، من خلال التعليم، حتّى تصبح الكنيسة جماعة من المؤمنين المثقّفين حتّى لو كانت المدرسة هي مدرسة تحت السنديانة. من بين المدارس التي تأسّست في جبل لبنان كانت مدرسة دير القدّيس أنطونيوس في عين ورقة التي أسّسها البطريرك يوسف اسطفان (من غوسطا) في العام 1789.

ج) إكليريكيّة غزير ثمّ جامعة القدّيس يوسف في بيروت

التاريخ الثالث هو تاريخ 1843 حيث افتتح اليسوعيّون في غزير، في قصر قديم للأمراء الدروز (من عائلة شهاب)، إكليريكيّة تتشارك فيها الطقوس في خدمة جميع كاثوليك لبنان، سواء كانوا لاتينيين أو شرقيين. كانت الإكليريكيّة تُعتَبَر إستمراريّة لمدرسة روما وكان الكرسيّ الرسوليّ يرغب بها بقدر ما رغب بها البطاركة الكاثوليك الشرقيين الأربعة. كان هدفها تزويد مختلف فروع الكنيسة الكاثوليكيّة برجال دين مثقّفين تفتقر إليهم. إلتزمت فيها جميع الكنائس الكاثوليكيّة من دون استثناء: موارنة، وروم ملكيّون، وأقباط، وكلدان، وسريان ولاتين. كانت إحدى أكبر المشكلات تمويل إكليريكيّة داخليّة وكان ذلك مكلفًا، حيث لم يكن لدى الأساقفة المحليين الكثير من الأموال ولم ترغب روما في دعمها. كان هناك مانحون، وخاصّة من فرنسا، مثل صندوق دعم المدارس المسيحيّة في الشرق (والتي أصبحت في أيّامنا هذه L'Œuvre d'Orient) برئاسة الكاردينال لافيجري Lavigerie.

إنضمّ السكولاستيكيون (المنتمين إلى الفلسفة المدرسيّة (سكولاستيك) إلى الإكليريكيين المحليين من الرهبنة اليسوعيّة المطرودين من فرنسا. بعد طرد اليسوعيين من فرنسا، ازداد عدد أعضاء هيئة التدريس في إكليريكيّة غزير بسرعة. وهكذا، منذ العام 1847، أصبح لكلّ تخصّص معلّمه الخاصّ. إكليريكيّة غزير هي المدرسة الأولى في لبنان حيث تمّ اعتماد نظام الفصول وحيث تمّ وضع برنامج كامل للدراسات من الصفّ السادس حتّى المرحلة الثانويّة. كان بإمكان الإكليريكيين الذين كانوا يصلون إلى الصفّ الأخير أن يكونوا مرشّحين للكهنوت. حلّ نظام التعليم باللغة الفرنسيّة محلّ اللغة الإيطاليّة منذ خمسينيّات القرن التاسع عشر 1850 ؛ وبهذه الطريقة أصبحت الفرنسيّة لغة التدريس في 90٪ من المدارس الابتدائيّة والثانويّة في بداية القرن العشرين وخاصّة بعد إعلان دولة لبنان الكبير.

في العام 1849، أضيفت إلى الإكليريكيّة مدرسة ثانويّة اتّبعت الدراسات فيها المنهج الكلاسيكيّ للمدارس اليسوعيّة.

أمّا التاريخ الذي يجب حفظه في الذاكرة فهو العام 1875، وهو العام الذي أصبحت فيه غزير جامعة القدّيس يوسف في بيروت، حيث تمّ إنشاء إكليريكيّة شرقيّة، بالإضافة إلى كليّة اللاهوت والفلسفة. كان التعليم يتّخذ شكلاً أكثر تقدّمًا حيث لم يُسمَح للبروتستانت بتعزيز وجودهم من خلال الجامعة الأمريكيّة في بيروت.

2) التربية المدرسيّة بين الأعوام 1974 و1991 وحتّى اليوم

أ) المدرسة التي تعتمد على الجماعات في لبنان هي ذات منفعة عامّة، في حين أنّ المدارس الخاصّة العلمانيّة أو الفرديّة تتمتّع بحسّ وممارسة تجاريّين. يعود هذا إلى العثمانيين عندما سمحوا للجماعات بأن تحظى بمؤسّسات تعليميّة خاصّة بها.

ب) في نهاية الحرب الأهليّة بين الأعوام 1975 و 1991، كانت هناك نقطة تحوّل كبيرة للمدارس الكاثوليكيّة وخاصّة المدارس الفرنكوفونيّة (الناطقة بالفرنسيّة) والتي لا تزال آثارها السلبيّة مستمرّة وتتضخّم حتّى يومنا هذا. في العام 1974، بلغ عدد التلامذة في المدارس الكاثوليكيّة 165،000 من إجمالي حوالي 450،000 (حوالي 35٪) ؛ بحلول العام 1991، أصبح هذا العدد 220.000 من أصل 800.000 (24٪) ؛ في العام 2006، 200.000 من أصل 911.000 واليوم، 192.000 من أصل 1 مليون وألف وبالتناسب، كانت المدرسة الكاثوليكيّة لتخسر 65٪ إلى 70٪ من قدرتها على استقبال التلامذة.

عدّة أسباب رئيسيّة تفسّر ركود الأرقام بطريقة نسبيّة :

إغلاق العديد من المدارس المسيحيّة في المناطق التي اندلعت فيها الحرب، الشوف، عاليه. أغلقت حوالي 80 مدرسة شبه خاصّة أبوابها في جبل لبنان الجنوبيّ.

الهجرة النهائيّة للكثير من العائلات، وخاصّة المسيحيّة منها، إلى الخارج، وهذا الأمر مستمرّ اليوم.

متوسّط معدّل المواليد في الأسرة المسيحيّة.

نشأة العديد من المدارس الإسلاميّة التي تشكّلت ضمن شبكة وتراجع نسبة ارتيادها.

مغادرة معلّمين إلى خارج لبنان أو لمِهَن أكثر ربحيّة.

الاتّجاه نحو إغلاق المدارس الصغيرة، خاصّة تلك الموجودة في المناطق.

ج) في أيّامنا هذه، تتكوّن المدرسة في لبنان من أربع كتل : الشبكة العامّة التي تعرّضت لزعزعة كبيرة بسبب أزمة جائحة كوفيد والأزمة الماليّة، والتي تستقبل حوالي ربع التلامذة، والمدارس "الفرديّة" التي تمثّل ربعًا آخر، والمدارس المسيحيّة الربع الثالث، والمدارس الإسلاميّة التي تشكّل الربع الرابع. تتكوّن هذه المجموعة الأخيرة من شبكة حيث المساعدة المتبادلة والتخطيط موجودان أكثر من أي مكان آخر. وهذا يفسّر قدرتها الأفضل على مواجهة الأزمات.

من الناحية اللغويّة والثقافيّة، تستمرّ اللغة الفرنسيّة في التراجع. في أيّامنا هذه، تجاوز عدد الطلاب الناطقين باللغة الإنجليزيّة عدد الطلاب الناطقين بالفرنسيّة، على الرغم من أنّ عدد المؤسّسات التربويّة لا يزال لصالح المؤسّسات التي تتبنّى اللغة الفرنسيّة (52 بالمائة).

من الناحية الاقتصاديّة والاجتماعيّة، إنخفضت عائدات المدارس الكاثوليكيّة، في الوقت الحاضر، بنسبة 80 في المائة مقارنة بالعام 2019-20 ؛ أكثر من 60٪ من أولياء الأمور لا يدفعون الرسوم المدرسيّة لأبنائهم. هناك حاجة لإعادة التفكير في المساعدة التي يجب أن تُقَدَّم إلى المدارس ؛ يقوم الصندوق الاجتماعيّ الفرنسيّ بذلك بناءً على احتياجات الأهل. لكن داخليًّا، يجب تعزيز سلسلة التضامن من الناحية الكاثوليكيّة.

يسود الوضع الاجتماعيّ غير المستقرّ نفسه في الجامعات الكاثوليكية الستّ : جامعة القدّيس يوسف USJ، وجامعة الحكمة Sagesse، وجامعة سيّدة اللويزة NDU، وجامعة الروح القدس-الكسليك USEK، والعائلة المقدّسة Sainte famille، والجامعة الأنطونيّة Antonins.

النتائج : تأثير ثقافيّ أقلّ على النسيج الاجتماعيّ، بسبب قلّة المدارس المسيحيّة في المناطق، وتقلّص وجود المسيحيين أنفسهم، كما تقلّص الفضاء الفرنكوفونيّ (الناطق بالفرنسيّة) واستبداله بالتعليم باللغة الإنجليزيّة.

3) التحدّيات الرئيسيّة في السياق الحاليّ

أ) كيف نحافظ على هويّة المدرسة الكاثوليكيّة ؟

إن أعادت المدرسة الكاثوليكيّة قراءة تاريخها جيّدًا، فإنّها ستجد ثلاثة عناصر تشكّل هويّتها :

1 إنّ مهمّتها التي تكمن في إعلان الإنجيل والتربية هي التي تحقّق هويّتها ؛ أوّلًا، تجاه الشبّان المسيحيّين أنفسهم الذين يتعرّضون لإغراء الحداثة وآثارها الإيجابيّة (بناء شخصيّة كلّ منهم)، ولكن أيضًا السلبيّة (الفرديّة) ؛ معرفة كيفيّة مرافقة نموّ الشباب من حيث التوعية على الإيمان بيسوع والإنجيل، في سياق متعدّد الأديان، من خلال التربية على دين الآخر ؛ معرفة كيفيّة التعامل مع يقظة الإيمان المسيحيّ ومعرفة الآخر،

2 تتحقّق هويّتها من خلال انفتاحها على جميع الجماعات، بمكافحة إغراء التوجّه نحو الحصريّة،

3- بانفتاحها على جميع الطبقات الاجتماعيّة بما فيها الفقراء والمحرومين : سياسة تضامن حقيقيّة.

ب) كيف تتمّ بلورة سياسة تربويّة وطنيّة تكون ديناميكيّة وتجمع بين الانتماء إلى الجماعة والانتماء إلى الوطن من خلال المواطنة ؟

من الواضح أنّ المؤسّسات الكاثوليكيّة تركت بصماتها على فلسفة التربية اللبنانيّة من خلال القيم المشتركة التي نقلتها والتي تواصل القيام بها في سياق تأخذ فيه القيم الأخرى مكانها على الساحة التربويّة. التربية الصريحة على المواطنة تفرض نفسها. إنّها خلاصنا الوحيد.

ج) كيف تتمّ مواجهة الكارثة التي سبّبتها الأزمة الاقتصاديّة والاجتماعيّة ؟

1 عدم الاستسلام وعدم اتّخاذ موقف الإحباط،

2 عدم إغلاق المدارس وخاصّةً الصغيرة منها وتلك الكائنة خارج بيروت والبلدات والمدن الكبرى،

3 معرفة كيفيّة إعداد جيل جديد من المسؤولين العلمانيين القادرين على مواصلة المسيرة.

د) كيفية توعية الشباب على الإيمان المسيحيّ في مجتمع متعدّد الأديان.

الخاتمة

في ظلّ الأزمة الحاليّة، تسعى المدرسة والجامعة للبقاء والاستمرار وترسيخ مهمّتهما التربويّة والإنسانيّة. لا يمكن أن يتمّ هذا الاستمرار في البقاء لا على حساب المعلّم واحتياجاته الأساسيّة ولا عن طريق جعل أهل التلامذة يستعطون التعليم لأبنائهم.

بالنسبة إلى التأثير السلبيّ لجائحة "كوفيد"، تجدر الإشارة إلى أنّ العديد من المدارس، نظرًا للأزمة الماليّة والاجتماعيّة، تعوّل على استدامة مهمّتها. كما أنّها تلعب ورقة استمراريّة جودة التعليم نظرًا للفقدان المستمرّ لإمكانيّاتها. على الرغم من الأزمة الاقتصاديّة والاجتماعيّة، يكمن دور المؤسّسات المدرسيّة والجامعيّة في أن تكون شعلة ونموذجًا في قدرتها على استقبال أجيال المستقبل وتنشئتها على الجودة والتميّز. من الأهميّة بمكان أن تكون قدوة للمؤسّسة التي تستمرّ حتّى تستعيد العائلات والأفراد الثقة بها. عانت كلّ من المدرسة والجامعة من محنة إنفجار مرفأ بيروت في 4 آب (أغسطس) 2020 وهما كذلك حتّى هذه اللحظة. لكن في شهرَي آب (أغسطس) وأيلول (سبتمبر) من العام نفسه، أثناء مداواة الجروح ومساعدة العديد من العائلات على إعادة البناء أو ببساطة لتوفير طعامها، أرادت المدرسة والجامعة فتح أبوابهما ومواصلة التدريس، ودعم الأزمتَين، منطلقةً من مثال الربّ الذي مات، لكنّه قام في اليوم الثالث. شعارهما هو التالي : المؤسّسة التي تحبّ لا تعرف الموت ؛ وهي تبقى واقفة مع الربّ القائم من الموت.